

التحرير والتنوير

وجعل ابن عطية (الليل) اسم جنس يصدق على جميع الليالي وأن المعنى : إلا قليلا من الليالي وهي الليالي التي يكون فيها عذر يمنعه من قيامها أي هو استثناء من الليالي باعتبار جزيئاتها لا باعتبار الأجزاء ثم قال (نصفه) إلى آخره .
وتخصيص الليل بالصلاة فيه لأنه وقت النوم عادة فأمر الرسول A بالقيام فيه زيادة في إشغال أوقاته بالإقبال على مناجاة الله : ولأن الليل وقت سكون الأصوات وإشغال الناس فتكون نفس القائم فيه أقوى استعدادا لتلقي الفيض الرباني .
(ورتل القرآن ترتيلا [4]) يجوز أن يكون متعلقا بقيام الليل أي رتل قراءتك في القيام .

ويجوز أن يكون أمرا مستقلا بكيفية قراءة القرآن جرى ذكره بمناسبة الأمر بقيام الليل وهذا أولى لأن القراءة في الصلاة تدخل في ذلك . وقد كان نزول هذه السورة في أول العهد بنزول القرآن فكان جملة القرآن حين نزول هذه السورة سورتين أو ثلاث سور بناء على أصح الأقوال في أن هذا المقدار من السور مكي وفي أن هذه السورة من أوائل السور وهذا مما أشعر به قوله (إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا) أي سنوحى إليك قرآنا .
فأمر النبي A أن يقرأ القرآن بمهل وتبيين .
والترتيل : جعل الشيء مرتلا أي مفرقا وأصله من قولهم : ثغر مرتل وهو المفلج الأسنان أي المفروق بين أسنانه تفريقا قليلا بحيث لا تكون النواجز متلاصقة . وأريد بترتيل القرآن ترتيل قراءته أي التمهّل في النطق بحروف القرآن حتى تخرج من الفم واضحة مع إشباع الحركات التي تستحق الإشباع . ووصفت عائشة الترتيل فقالت " لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدّها لا كسر دكم هذا " .

وفائدة هذا أن يرسخ حفظه ويتلقاه السامعون فيعلق بحوافظهم ويتدبر قارئه وسامعه معانيه كي لا يسبق لفظ اللسان عمل الفهم . قال قائل لعبد الله بن مسعود : قرأت المفصل في ليلة فقال عبد الله " هذا كهذ الشعر " لأنهم كانوا إذا أنشدوا القصيدة أسرعوا ليظهر ميزان بحرّها وتتعاقب قوافيها على الأسماع . والهد : إسراع القطع .
وأكد هذا المر بالمفعول المطلق لإفادة تحقيق صفة الترتيل . وقرأ الجمهور (أو انقص) بضم الواو للتخلص من التقاء الساكنين عند سقوط همزة الوصل حركة الواو بضمه لمناسبة ضمة قاف (انقص) بعدها . وقرأه حمزة وعاصم بكسر الواو على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين .

ووقع في قوله (أو زد عليه ورتل القرآن) إذا " شبت " فتحة نون القرآن محسن الاتزان بأن يكون مصراعا من بحر الكامل أحد دخله الإضمار مرتين .

(إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا [5]) تعليل للأمر بقيام الليل وقع اعتراضا بين جملة (قم الليل) وجملة (إن ناشئة الليل هي أشد وطئا) وهو جملة مستأنفة استئنفا ببيانها لحكمة الأمر بقيام الليل بأنها تهيئة نفس النبي A ليحمل شدة الوحي وفي هذا إيحاء إلى أن □ يسر عليه ذلك كما قال تعالى (إن علينا جمعه وقرآنه) فتلك مناسبة وقوع هذه الجملة عقب جملة (قم الليل إلا قليلا) فهذا إشعار بأن نزول هذه الآية كان في أول عهد النبي A بنزول القرآن فلما قال له (ورتل القرآن ترتيلا) أعقب ببيان علة الأمر بترتيل القرآن . والقول الثقيل هو القرآن وإلقاؤه عليه : إبلاغه له بطريق الوحي بواسطة الملك . وحقيقة الإلقاء : رمي الشيء من اليد إلى الأرض وطرحه ويقال : شيء لقي أي مطروح استعير الإلقاء للإبلاغ دفعة على غير ترقب .

معان على لاشتماله حفظه لصعوبة مستعار محالة لا مجازي ثقل القول به الموصوف والثقل A E ليست من معتاد ما يجول في مدارك قومه فيكون حفظ ذلك القول عسيرا على الرسول الأمي تنوء الطاقة عن تلقيه .

وأشعر قوله (إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا) أن ثقله متعلق ابتداء بالرسول A لقوله قبله (إنا سنلقي عليك) وهو ثقل مجازي في جميع اعتباراته وهو ثقل صعب تلقيه ممن أنزل عليه . قال ابن عباس : كان رسول □ A " إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتردد له جلده " " أي تغير بمثل القشعريرة " وقالت عائشة " رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليبرض عرفا " .